فهٰذا ليس إلينا.

* * *

● **الأمر الخامس مما يكون يوم القيامة:**

ما ذكره بقوله: «**فتُنْصَبُ المَوازينُ فَتُوزَنُ بِها أعْمالُ العِبادِ**».

* الذي ينصب الموازين هو الله عز وجل؛ لتوزن بها أعمال العباد.

* والمؤلف يقول: «الموازين»: بالجمع، وقد وردت النصوص بالجمع والإفراد:

ـ فمثال الجمع: قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨ ـ ٩].

ـ وأما الإفراد؛ فقال النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[1].

فقال: «في الميزان»؛ فأفرد؛

فكيف نجمع بين الآيات القرآنية وبين هٰذا الحديث؟!

فالجواب أن نقول:

---

(١) رواه: البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إنها جمعت باعتبار الموزون؛ حيث إنه متعدد، وأفردت باعتبار أن الميزان واحد، أو ميزان كل أمة.

أو أن المراد بالميزان في قوله عليه الصلاة والسلام: «ثقيلتان في الميزان»؛ أي: في الوزن.

ولٰكن الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن الميزان واحد، وأنه جمع باعتبار الموزون؛ بدليل قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨].

لكن يتوقف الإنسان: هل يكون ميزاناً واحداً لجميع الأمم أو لكل أمة ميزان؛ لأن الأمم كما دلت عليه النصوص تختلف باعتبار أجرها؟!

* وقوله: «**تنصب الموازين**»: ظاهره أنها موازين حسية، وأن الوزن يكون على حسب المعهود بالراجح والمرجوح، وذٰلك لأن الأصل في الكلمات الواردة في الكتاب والسنة حملها على المعهود المعروف؛ إلا إذا قام دليل على أنها خلاف ذلك، والمعهود المعروف عند المخاطبين منذ نزول القرآن الكريم إلى اليوم أن الميزان حسي، وأن هناك راجحاً ومرجوحاً.

وخالف في ذٰلك جماعة:

ـ فالمعتزلة قالوا: إنه ليس هناك ميزان حسي، ولا حاجة له؛ لأن الله تعالى قد علم أعمال العباد وأحصاها، ولٰكن المراد بالميزان: الميزان المعنوي الذي هو العدل.

ولا شك أن قول المعتزلة باطل؛ لأنه مخالف لظاهر اللفظ وإجماع السلف، ولأننا إذا قلنا: إن المراد بالميزان: العدل؛ فلا حاجة إلى أن نعبر بالميزان، بل نعبر بالعدل؛ لأنه أحب إلى النفس من كلمة (ميزان)، ولهٰذا قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

ـ وقال بعض العلماء: إن الرجحان للعالي؛ لأنه يحصل فيه العلو، لٰكن الصواب أن نجري الوزن على ظاهره، ونقول: إن الراجح هو الذي ينزل، ويدل لذٰلك حديث صاحب البطاقة؛ فإن فيه أن السجلات تطيش وتثقل البطاقة، وهٰذا واضح؛ بأن الرجحان يكون بالنزول.

* وقوله: «**فتوزن بها أعمال العباد**»: كلام المؤلف رحمه الله صريح بأن الذي يوزن: العمل.

* وهنا مبحثان:

المبحث الأول: كيف يوزن العمل؛ والعمل وصف قائم بالعامل، وليس جسماً فيوزن؟!

والجواب على ذٰلك: أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى يجعل هٰذه الأعمال أجساماً، وليس هٰذا بغريب على قدرة الله عز وجل، وله نظير، وهو الموت؛ فإنه يجعل على صورة كبش، ويذبح بين الجنة والنار[1]، مع أن الموت معنى، وليس بجسم، وليس الذي

---

(١) كما جاء ذلك فى «صحيح البخاري» (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩)؛ عن أبي سعيد =

يذبح ملك الموت، ولٰكنه نفس الموت؛ حيث يجعله الله تعالى جسماً يشاهد ويرى، كذٰلك الأعمال يجعلها الله عز وجل أجساماً توزن بهٰذا الميزان الحسي.

المبحث الثاني: صريح كلام المؤلف أن الذي يوزن العمل؛ سواء كان خيراً أم شرّاً:

وهٰذا هو ظاهر القرآن؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦ ـ ٨]؛ فهٰذا واضح أن الذي يوزن العمل؛ سواء كان خيراً أم شرّاً.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان»[(١)]، وهٰذا ظاهر أيضاً، بل صريح، في أن الذي يوزن العمل، والنصوص في هٰذا كثيرة.

ولٰكن هناك نصوص قد يخالف ظاهرها هٰذا الحديث:

ــ منها حديث صاحب البطاقة؛ رجل يؤتى به على رؤوس الخلائق، وتعرض عليه أعماله في سجلات تبلغ تسعة وتسعين سجلاًّ؛ كل سجل منها يبلغ مد البصر، فيقر بها، فيقال له: ألك عذر أو حسنة؟ فيقول: لا؛ يا رب! فيقول الله: بلى؛ إن لك

= الخدري رضي الله عنه.

(١) تقدم تخريجه (٢/١٣٨)، وهو في «الصحيحين».

عندنا حسنة. فيؤتى ببطاقة صغيرة، فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فيقول: يا رب! ما هٰذه البطاقة مع هٰذه السجلات؟! فيقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة... الحديث[1].

وظاهر هٰذا أن الذي يوزن صحائف الأعمال.

ـ وهناك نصوص أخرى تدل على أن الذي يوزن العامل؛ مثل:

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]؛ مع أنه قد ينازع في الاستدلال بهٰذه الآية؛ فيقال: إن معنى قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾؛ يعني: قدراً.

ومثل ما ثبت من حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ أنه كان يجتني سواكاً من الأراك، وكان رضي الله عنه دقيق الساقين، جعلت الريح تحركه، فضحك الصحابة رضي الله عنهم، فقال النبي ﷺ: «مم تضحكون؟». قالوا: من دقة ساقيه. قال: «والذي

---

(١) رواه: أحمد (٢/٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/٥٢٩) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥)، وللحافظ حمزة الكناني «جُزء البطاقة».

نفسي بيده؛ لهما في الميزان أثقل من أحد»[1].

فصار ها هنا ثلاثة أشياء: العمل، والعامل، والصحائف.

ـ فقال بعض العلماء: إن الجمع بينها أن يقال: إن من الناس من يوزن عمله، ومن الناس من يوزن صحائف عمله، ومن الناس من يوزن هو بنفسه.

ـ وقال بعض العلماء: الجمع بينها أن يقال: إن المراد بوزن العمل أن العمل يوزن وهو في الصحائف، ويبقى وزن صاحب العمل، فيكون لبعض الناس.

ـ ولٰكن عند التأمل نجد أن أكثر النصوص تدل على أن الذي يوزن هو العمل، ويخص بعض الناس، فتوزن صحائف أعماله، أو يوزن هو نفسه.

وأما ما ورد في حديث ابن مسعود وحديث صاحب البطاقة؛ فقد يكون هٰذا أمراً يخص الله به من يشاء من عباده.

* * *

* قـولـه: «﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]»:

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٢١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٨٩): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني من طرق وأمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح».

* ﴿فَمَن﴾: شرطية.

* وجواب الشرط جملة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وأتت الجملة الجزائية جملة اسمية بصفة الحصر ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

وجاءت باسم الإشارة الدال على البعد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، ولم يقل: فهم المفلحون. إشارة إلى علو مرتبتهم.

وجاءت بصفة الحصر في قوله: ﴿هُمُ﴾، وهو ضمير فصل يفيد الحصر والتوكيد، والفصل بين الخبر والصفة.

* والمفلح: هو الذي فاز بمطلوبه ونجا من مرهوبه؛ فحصل له السلامة مما يكره، وحصل له ما يحب.

* والمراد بثقل الموازين رجحان الحسنات على السيئات.

* وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: فيه إشكال من جهة العربية؛ فإن ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ الضمير فيه مفرد، و ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الضمير فيه جمع!!

وجوابه أن (من) الشرطية صالحة للإفراد والجمع؛ فباعتبار اللفظ يعود الضمير إليها مفرداً، وباعتبار المعنى يعود الضمير إليها جمعاً.

وكلما جاءت (من)؛ فإنه يجوز أن تعيد الضمير إليها بالإفراد أو بالجمع، وهٰذا كثير في القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ

رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]؛ فتجد الآية الكريمة فيها مراعاة اللفظ ثم المعنى ثم اللفظ.

* قوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

* والإشارة هنا للبعد؛ لانحطاط مرتبتهم، لا لعلو مرتبتهم.

* وقوله: ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: الكافر قد خسر نفسه وأهله وماله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥]، بينما المؤمن العامل للصالحات قد ربح نفسه وأهله وماله وانتفع به.

فهٰؤلاء الكفار خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يستفيدوا من وجودهم في الدنيا شيئاً، بل ما استفادوا إلا الضرر، وخسروا أموالهم؛ لأنهم لم ينتفعوا بها، حتى ما أعطوه للخلق لينتفع به؛ فإنه لا ينفعهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]، وخسروا أهليهم؛ لأنهم في النار؛ فصاحب النار لا يأنس بأهله، بل إنه مغلق عليه في تابوت، ولا يرى أن أحداً أشد منه عذاباً.

* والمراد بخفة الموازين: رجحان السيئات على الحسنات، أو فقدان الحسنات بالكلية، إن قلنا بأن الكفار توزن أعمالهم؛ كما هو ظاهر هٰذه الآية الكريمة وأمثالها، وهو أحد القولين لأهل العلم.

والقول الثاني: أن الكفار لا توزن أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

والله أعلم.

* * *

● **الأمر السادس مما يكون يوم القيامة:**

وهو ما ذكره المؤلف بقوله: «**وَتُنْشَرُ الدَّواوينُ**».

* «**تنشر**»؛ أي: تفرق وتفتح لقارئها.

* «**والدواوين**»: جمع ديوان، وهو السجل الذي تكتب فيه الأعمال، ومنه دواوين بيت المال، وما أشبه ذٰلك.

* قال: «**وهي صحائف الأعمال**»؛ يعني: التي كتبتها الملائكة الموكلون بأعمال بني آدم؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩ ـ ١٢].

فيكتب هٰذا العمل، ويكون لازماً للإنسان في عنقه؛ فإذا كان يوم القيامة؛ أخرج الله هذا الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤].

قال بعض السلف: لقد أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك.

* والكتابة في صحائف الأعمال: إما للحسنات، وإما للسيئات، والذي يكتب من الحسنات ما عمله الإنسان، وما نواه، وما هم به؛ فهٰذه ثلاثة أشياء:

ـ فأما ما عمله؛ فظاهر أنه يكتب.

ـ وأما ما نواه؛ فإنه يكتب له، لٰكن يكتب له أجر النية فقط كاملاً؛ كما في الحديث الصحيح في قصة الرجل الذي كان له مال ينفقه في سبل الخير، فقال الرجل الفقير: لو أن عندي مالاً؛ لعملت فيه بعمل فلان؛ قال النبي ﷺ: «فهو بنيته؛ فأجرهما سواء»[1].

ويدل على أنهما ليسا سواء في الأجر من حيث العمل: أن فقراء المهاجرين لما أتوا إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله! إن أهل الدثور سبقونا. فقال لهم ﷺ: تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين... فلما سمع الأغنياء بذٰلك؛ فعلوا مثله، فرجع الفقراء يشكون إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال لهم: «ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء[2]»، ولم يقل: إنكم بنيتكم

---

(١) قطعة من الحديث الذي رواه أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨) عن أبي كبشة الأنماري. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٢٤).

(٢) رواه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥)؛ عن حديث أبي هريرة.

أدركتم عملهم.

ولأن هٰذا هو العدل؛ فرجل لم يعمل لا يكون كالذي عمل، لٰكن يكون مثله في أجر النية فقط.

ـ وأما الهم؛ فينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يهم بالشيء ويفعل ما يقدر عليه منه، ثم يحال بينه وبين إكماله.

فهٰذا يكتب له الأجر كاملاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وهٰذه بشرى لطلبة العلم: إذا نوى الإنسان أنه يطلب العلم وهو يريد أن ينفع الناس بعلمه ويذب عن سنة الرسول ﷺ وينشر دين الله في الأرض، ثم لم يقدر له ذٰلك؛ بأن مات مثلاً وهو في طلبه؛ فإنه يكتب له أجر ما نواه وسعى إليه.

بل إن الإنسان إذا كان من عادته العمل، وحيل بينه وبينه لسبب؛ فإنه يكتب له أجره.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا مرض العبد أو سافر؛ كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»[1].

القسم الثاني: أن يهم بالشيء ويتركه مع القدرة عليه؛ فيكتب له به حسنة كاملة؛ لنيته.

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٦)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وأما السيئات؛ فإنه يكتب على الإنسان ما عمله، ويكتب عليه ما أراده وسعى فيه ولٰكن عجز عنه، ويكتب عليه ما نواه وتمناه.

فالأول: واضح.

والثاني: يكتب عليه كاملاً؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله! هٰذا القاتل؛ فما بال المقتول؟! قال: «لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[1]، ومثله من هم أن يشرب الخمر، ولٰكن حصل له مانع؛ فهٰذا يكتب عليه الوزر كاملاً؛ لأنه سعى فيه.

والثالث: الذي نواه وتمناه يكتب عليه، لٰكن بالنية، ومنه الحديث الذي أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن رجل أعطاه الله مالاً؛ فكان يتخبط فيه، فقال رجل فقير: لو أن لي مالاً؛ لعملت فيه بعمل فلان. قال النبي عليه الصلاة والسلام: «فهو بنيته؛ فوزرهما سواء»[2].

ولو هم بالسيئة، ولٰكن تركها؛ فهٰذا على ثلاثة أقسام:

١ ـ إن تركها عجزاً؛ فهو كالعامل إذا سعى فيها.

٢ ـ وإن تركها لله؛ كان مأجوراً.

---

(١) رواه: البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨)؛ عن أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه (٢/ ١٤٧).

٣ ـ وإن تركها لأن نفسه عزفت عنها، أو لم تطرأ على باله؛ فهٰذا لا إثم عليه ولا أجر.

والله عز وجل يجزي بالحسنات أكثر من العمل، ولا يجزي بالسيئات إلا مثل العمل؛ قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وهٰذا من كرمه عز وجل ومن كون رحمته سبقت غضبه.

* قوله: «**فَآخِذٌ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ**»: «**آخذ**»: مبتدأ، وخبره محذوف، والتقدير: فمنهم آخذ.

وجاز الابتداء به وهو نكرة؛ لأنه في مقام التفصيل؛ أي أن الناس ينقسمون؛ فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه، وهم المؤمنون، وهٰذا إشارة إلى أن لليمنى الإكرام، ولذٰلك يأخذ المؤمن كتابه بها، والكافر يأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره؛ كما قال المؤلف: «**وآخذ كتابه بشماله**».

* وقوله: «**أو من وراء ظهره**»: «**أو**» للتنويع، وليست للشك.

فظاهر كلام المؤلف أن الناس يأخذون كتبهم على ثلاثة أوجه: باليمين، وبالشمال، ومن وراء الظهر.

ولٰكن الظاهر أن هٰذا الاختلاف اختلاف صفات؛ فالذي يأخذ كتابه من وراء ظهره هو الذي يأخذ كتابه بشماله؛ فيأخذ بالشمال، وتجعل يده من الخلف؛ فكونه يأخذه بالشمال؛ لأنه من أهل

الشمال، وكونه من وراء ظهره؛ لأنه لما استدبر كتاب الله، وولَّى ظهره إياه في الدنيا؛ صار من العدل أن يجعل كتاب أعماله يوم القيامة خلف ظهره؛ فعلى هٰذا؛ تخلع اليد الشمال حتى تكون من الخلف. والله أعلم.

* قوله: «**كما قال سبحانه وتعالى**: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤]»:

* ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾؛ أي: عمله؛ لأن الإنسان يتشاءم به أو يتفاءل به، ولأن الإنسان يطير به فيعلو أو يطير به فينزل.

* ﴿فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾؛ أي: رقبته، وهٰذا أقوى ما يكون تعلقاً بالإنسان؛ حيث يربط في العنق؛ لأنه لا يمكن أن ينفصل إلا إذا هلك الإنسان؛ فهٰذا يلزم عمله.

* وإذا كان يوم القيامة؛ كان الأمر كما قال الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾؛ أي: مفتوحاً؛ لا يحتاج إلى تعب ولا إلى مشقة في فتحه.

* ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ وانظر ما كتب عليك فيه.

* ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾: وهٰذا من تمام العدل والإنصاف: أن يوكل الحساب إلى الإنسان نفسه.

والإنسان العاقل لا بد أن ينظر ماذا كتب في هٰذا الكتاب الذي سوف يجده يوم القيامة مكتوباً.

ولٰكن؛ نحن أمامنا باب يمكن أن يقضي على كل السيئات، وهو التوبة، وإذا تاب العبد إلى الله؛ مهما عظم ذنبه؛ فإن الله يتوب عليه، وحتى لو تكرر الذنب منه، وهو يتوب؛ فإن الله يتوب عليه؛ فما دام الأمر بأيدينا الآن؛ فعلينا أن نحرص على أن لا يكتب في هٰذا الكتاب إلا العمل الصالح.

* * *

● **الأمر السابع مما يكون يوم القيامة:**

وهو ما ذكره المؤلف بقوله: «**وَيُحاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ**»:

* المحاسبة: إطلاع العباد على أعمالهم يوم القيامة.

وقد دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل:

ـ أما الكتاب؛ فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٨]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٢].

ـ وأما السنة؛ فقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام بعدة أحاديث أن الله تعالى يحاسب الخلائق.

ـ وأما الإجماع؛ فإنه متفق عليه بين الأمة: أن الله تعالى يحاسب الخلائق.

ـ وأما العقل؛ فواضح؛ لأننا كلفنا بعمل فعلاً وتركاً وتصديقاً، والعقل والحكمة تقتضيان أن من كلف بعمل؛ فإنه يحاسب عليه ويناقش فيه.

* وقول المؤلف: «**الخلائق**»: جمع خليقة؛ يشمل كل مخلوق.

إلا أنه يستثنى من ذٰلك من يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ كما ثبت ذٰلك في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ رأى أمته ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون[1].

وقد روى الإمام أحمد بسند جيد: أن مع كل واحد سبعين ألفاً[2].

فتضرب سبعين ألفاً بسبعين ألفاً، ويزاد سبعون ألفاً. هٰؤلاء كلهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

* وقوله: «**الخلائق**»: يشمل أيضاً الجن؛ لأنهم مكلفون، ولهٰذا يدخل كافرهم النار بالنص والإجماع؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه الإمام أحمد (١/ ٥ و ١٩٦) عن أبي بكر وابنه عبد الرحمن، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤١٠ ـ ٤١١): رواه أحمد والبزار بنحوه، والطبراني بنحوه، وفي أسانيدهم القاسم بن مهران عن موسى بن عبيد، وموسى بن عبيد هذا هو مولى خالد بن عبد الله بن أسيد، ذكره ابن حبان في «الثقات»، والقاسم بن مهران ذكره الذهبي في «الميزان»، وأنه لم يرو عنه إلاّ سليم بن عمرو النخعي، وليس كذلك، فقد روى عنه هذا الحديث هشام بن حسان، وباقي إسناده محتج بهم في «الصحيح».

﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨]، ويدخل مؤمنهم الجنة على قول جمهور أهل العلم، وهو الصحيح؛ كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ. . .﴾ إلى قوله: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٤٦ ـ ٥٦].

* وهل تشمل المحاسبة البهائم؟!

أما القصاص؛ فيشمل البهائم؛ لأنه ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام «أنه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[1]، وهٰذا قصاص، لٰكنها لا تحاسب حساب تكليف وإلزام؛ لأن البهائم ليس لها ثواب ولا عقاب.

* * *

* قوله: «**وَيَخْلو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنوبِهِ**»:

* هٰذا صفة حساب المؤمن:

يخلو به الله عز وجل دون أن يطلع عليه أحد، ويقرره بذنوبه؛ أي: يقول له: عملت كذا، وعملت كذا. . . حتى يقر ويعترف، ثم يقول: «سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»[2].

ومع ذٰلك؛ فإنه سبحانه وتعالى يضع عليه ستره؛ بحيث لا يراه أحد، ولا يسمعه أحد، وهٰذا من فضل الله عز وجل على

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٢٥٣).

المؤمن؛ فإن الإنسان إذا قررك بجناياتك أمام الناس وإن سمح عنك؛ ففيه شيء من الفضيحة، لٰكن إذا كان ذٰلك وحدك؛ فإن ذٰلك ستر منه عليك.

* قوله: «**كما وصف ذلك في الكتاب والسنة**»:

* «**ذٰلك**»: المشار إليه الحساب؛ يعني: كما وصف الحساب في الكتاب والسنة، لأن هذا من الأمور الغيبية المتوقفة على الخبر المحض، فوجب الرجوع فيه إلى ما وصف في الكتاب والسنة.

* * *

* قوله: «**وأما الكفار؛ فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته؛ فإنهم لا حسنات لهم، ولٰكن تعد أعمالهم فتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويخزون بها**».

* هٰكذا جاء معناه في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حينما ذكر حساب الله تعالى لعبده المؤمن، وأنه يخلو به، ويقرره بذنوبه. قال: «وأما الكفار والمنافقون؛ فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين». متفق عليه[1].

وفي «صحيح مسلم»[2]، عن أبي هريرة رضي الله عنه، في

---

(١) تقدم تخريجه في الجزء الأول.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٦٨).

حديث طويل عن النبي ﷺ قال: فيلقى العبد، أي: يلقى الله العبد، يعني: المنافق، فيقول: يا فل، أي: يا فلان، ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟! فيقول: بلى، قال: فيقول: أظننت أنك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيسأله فيجيب كما أجاب الأول، فيقول الله: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذن، قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه.

(تنبيه):

في قول المؤلف رحمه الله محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ... الخ، إشارة إلى أن المراد بالمحاسبة المنفية عنهم هي محاسبة الموازنة بين الحسنات والسيئات، وأما محاسبة التقرير والتقريع فثابتة كما يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فائدة:

أول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال الصلاة، وأول ما يقضى فيه بين الناس الدماء؛ لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية، والدماء أعظم ما يعتدى به في حقوق الآدميين.

● **الأمر الثامن مما يكون يوم القيامة:**

وهو ما ذكره المؤلف بقوله: «**وَفي عَرَصاتِ القِيامَةِ الحَوْضُ المَوْرودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ**».

* **العرَصات:** جمع عرْصة، وهي المكان المتسع بين البنيان، والمراد به هنا مواقف القيامة.

* والحوض في الأصل: مجمع الماء، والمراد به هنا: حوض النبي ﷺ.

* والكلام على الحوض من عدة وجوه:

أولاً: هٰذا الحوض موجود الآن؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه خطب ذات يوم في أصحابه، وقال: «وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن»[1].

وأيضاً؛ ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام؛ أنه قال: «ومنبري على حوضي»[2].

وهٰذا يحتمل أنه في هٰذا المكان، لٰكن لا نشاهده؛ لأنه غيبي، ويحتمل أن المنبر يوضع يوم القيامة على الحوض.

ثانياً: هٰذا الحوض يصب فيه ميزابان من الكوثر، وهو النهر العظيم، الذي أعطيه النبي ﷺ في الجنة؛ ينزلان إلى هٰذا

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩٠)، ومسلم (٢٢٩٦)؛ عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٦٥٨٩)، ومسلم (١٣٩١)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الحوض[1].

ثالثاً: زمن الحوض قبل العبور على الصراط؛ لأن المقام يقتضي ذٰلك؛ حيث إن الناس في حاجة إلى الشرب في عرصات القيامة قبل عبور الصراط[2].

رابعاً: يرد هٰذا الحوض المؤمنون بالله ورسوله ﷺ، المتبعون لشريعته، وأما من استنكف واستكبر عن اتباع الشريعة؛ فإنه يطرد منه[3].

خامساً: في كيفية مائه: فيقول المؤلف رحمه الله: «ماؤه أشد بياضاً من اللبن»: هٰذا في اللون، أما في الطعم؛ فقال: «وأحلى من العسل»، وفي الرائحة أطيب من ريح المسك؛ كما ثبت به الحديث عن النبي ﷺ[4].

سادساً: في آنيته: يقول المؤلف: «آنيته عدد نجوم السماء».

هٰذا كما ورد في بعض ألفاظ الحديث، وفي بعضها: «آنيته

---

(١) لما رواه مسلم (٢٣٠٠ و ٢٣٠١)؛ من حديث أبي ذر وثوبان رضي الله عنهما.

(٢) لما رواه عبدالله بن الإمام أحمد في زياداته على المسند (٤/١٣) في الحديث الطويل عن أبي رزين. وقال الحافظ في الفتح (١١/٤٦٧) بعد أن عزاه لابن أبي عاصم في السنة والطبراني والحاكم قال: «وهو صريح في أن الحوض قبل الصراط».

(٣) ثبت ذلك في «صحيح البخاري» (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧)، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجالٌ منكم ثم ليختلجن دوني، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

(٤) رواه: البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢)؛ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

كنجوم السماء»، وهٰذا اللفظ أشمل؛ لأنه يكون كالنجوم في العدد وفي الوصف بالنور واللمعان؛ فآنيته كنجوم السماء كثرة وإضاءة.

سابعاً: آثار هٰذا الحوض: قال المؤلف: «من يشرب منه شربة؛ لا يظمأ بعدها أبداً»: حتى على الصراط وبعده.

وهٰذه من حكمة الله عز وجل؛ لأن الذي يشرب من الشريعة في الدنيا لا يخسر أبداً كذٰلك.

ثامناً: مساحة هٰذا الحوض: يقول المؤلف: «طوله شهر وعرضه شهر»: هٰذا إذاً يقتضي أن يكون مدوراً؛ لأنه لا يكون بهٰذه المساحة من كل جانب؛ إلا إذا كان مدوراً، وهٰذه المسافة باعتبار ما هو معلوم في عهد النبي ﷺ من سير الإبل المعتاد.

تاسعاً: هل للأنبياء الآخرين أحواضٌ؟

فالجواب: نعم؛ فإنه جاء في حديث رواه الترمذي ـ وإن كان فيه مقال ـ:

«إن لكل نبي حوضاً»[1].

لٰكن هٰذا يؤيده المعنى، وهو أن الله عز وجل بحكمته وعدله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٣٤)، والحديث أورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/٣٦٣) بلفظ آخر، وقال: وفيه مروان بن جعفر السميري وثقه ابن أبي حاتم، وقال الأزدي: يتكلمون فيه، وبقية رجاله ثقات. وقال الألباني في «الصحيحة» (١٥٨٩): وجملة القول: إن الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح، والله أعلم. وانظر: «فتح الباري» (١١/٤٦٧).

كما جعل للنبي محمد ﷺ حوضاً يرده المؤمنون من أمته؛ كذٰلك يجعل لكل نبي حوضاً، حتى ينتفع المؤمنون بالأنبياء السابقين، لٰكن الحوض الأعظم هو حوض النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

* * *

● **الأمر التاسع مما يكون يوم القيامة: الصراط:**

وقد ذكره المؤلف بقوله: «**وَالصِّراطُ مَنْصوبٌ عَلى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الجِسْرُ الذي بين الجنة والنار**».

* وقد اختلف العلماء في كيفيته:

ـ فمنهم من قال: طريق واسع يمر الناس عليه على قدر أعمالهم؛ لأن كلمة الصراط مدلولها اللغوي هو هٰذا؛ ولأن رسول الله ﷺ أخبر بأنه دَحْض ومَزِلة[1]، والدحض والمزلة لا يكونان إلا في طريق واسع، أما الضيق؛ فلا يكون دحضاً ومزلة.

ـ ومن العلماء من قال: بل هو صراط دقيق جدّاً؛ كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري الذي رواه مسلم بلاغاً[2]؛ أنه أدق من الشعر، وأحد من السيف.

* على هٰذا يرد سؤال: وهو: كيف يمكن العبور على طريق كهٰذا؟

---

(١) زواه: البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٨٣).